الرثاء في العصر الجاهلي : صدق الانفعال وجدلية الموت

د. حسن موسى محمد بوسنينه ، جامعة اجدابيا .

الكلمات المفتاحية .

الجاهلي – الموت – الرثاء – الشعر – الصدق .

الملخص .

إن المتأمل لشـــعر العصـــر الجاهلي – عامة – يجد عديد الظواهر التي تســـتدعي الملاحظة والاهتمام ، ويجد أن القصيدة الجاهلية ستبقى مؤهلة لإعادة النظر والتأمل والدراسة ، فالنص الجاهلي أرض غنية بكل الطاقات ومتعدد القراءات ، وفي شعر الرثاء – خا صة – تقابلنا ظواهر وقضـــايا أخرى منها : الموت ، وكيف نظر هؤلاء الشـــعراء إلى الموت بنظرة تنقل ثقافة مجتمعهم عنه .

وإن كانت لهم آراء عديدة في شتى مناحي الحياة ، فإننا رأينا اقتصار الموضوع على مفهوم الرثاء والموت لديهم .

ومما لا شك فيه إن شعر الرثاء متواصل ومتواتر في كل العصور ، إلا أننا قصرنا هذه الدراسة على عصر ما قبل البعثة المحمدية ، وهو ما اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلي ، غير أني لا أقصد به تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام فحسب ، وإنما تمتد حتى تشمل فترة المخضرمين الذين هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية كما اعتمد ذلك عديد الباحثين الذين اعتبروا أن شعر المخضرمين من سكان البادية ألصق بالشعر الجاهلي وصفاته وخصائصه .

إن المجتمع العربي في عصر ما قبل البعثة المحمدية تحكمه عادات ، وقوانين فرضتها حياة قاسية في صحراء ممتدة مجهولة ، وظهر هذا النوع من الشعر بسبب كثرة الحروب

والصـــــراعات التي كانت تنهي حياة الكثيرين ، فعندما كان يموت أحد أفراد القبيلة يشـــرع الشعراء في إظهار الحزن والأسى على فقيدهم ، ويهرعون لنسج قصائد الرثاء لإظهار عظمة الفقيد وخصاله ، الأمر الذي جعلها ظاهرة تستوجب التأمل ، والبحث .

إن محاولة تسليط الضوء على شعر الرثاء عامةً ، وعلى شعر الموت خاصةً ، تتيح لنا رؤية مفهومهم للموت ، وإن كان يكفينا وضع هذه الظاهرة تحت المجهر ، لنترك الحكم للقارئ لأن هذه النتائج والحقائق تظل نسبية ، وليست مطلقة .

أضـــــحى الجاهليون قاب قوســـين أو أدنى من الموت الذي كثر حديثهم عنه نتيجة لكثرة ملاقاتهم له ، وذلك لقيام حياتهم على الغزو والإغارة ، فكيف كان وصـــــفهم للموت ، وكيف كانوا ينظرون إليه ، وما هي الحكمة التي ا ستخل صوها من م صافحة الموت ، ولماذا كثرت مراثيهم لأهاليهم وأصحابهم ؟ .

هذه التساؤلات وغيرها هي ما سنحاول إيجاد إجابة لها من خلال أشعارهم ، ولذا سنعرج على نظرتهم للموت لنرى حكمتهم فيه ، ثم نلقي نظرة على نماذج من مراثيهم ، لنتعرف على مقدار فجيعتهم في أهلهم وذويهم .

ارتبطت حياة الجاهليين بالموت ارتباطاً وثيقاً ، ونشـــأت بينهما علاقة وشـــيجة ، حين أضحوا قريبين من الموت ، فقد اغترب الجاهليون عندما ذهبوا يبحثون عن مصدر للرزق بعد فشل مجتمعهم في تأمين الحاجات العضوية ، كما اغتربوا يبحثون عن نصير ليأخذ بثأر أخ أو والد أو قريب ، فأضحت حياتهم بين طالب ومطلوب وطراد وحذر [1] .

[1] ينظر قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د. مصطفى ناصف ، ص : 168.

وقد اتخذ الجاهليون خطوات عريضة لحياتهم ، فكانت المقابلة بين الموت والفقر توجب اختيار الموت، والموت في البحث عن الرزق أهون من الإقامة على الذل ، أو غربة البعد وغربة الفراق .

وهكذا كانت الحياة الجاهلية مضـــطربة وغير مســـتقرة ، ففيها الخوف والقلق والجوع والبؤس والحرمان ، ونتيجة لهذه الحياة تولد عندهم شعور عام " وهذا الشعور هو عدم الاهتمام بالموت ، بل الاستهانة الشديدة به ، فالشعور بحتميته أدى إلى قبوله كشيء لا مفر منه ، وبما أن الموت كذلك فلا داعي للحرص الشديد على الحياة " [2].

حتمية الموت ويقينه :

لقد أيقن الجاهليون في قرارة أنفسهم بحتمية الموت حيث إن حياتهم أخذت منحى خاصاً ، وأكثروا من المعارك والغارات الأمر الذي جعلهم أقرب إلى الموت من غيرهم ، يقول تأبط شراً من الطويل : (1)

وَمَن يُغَرِ بِالأَبطَـــــــالِ لَا بُدَّ أَنَّهُ سَيَلقَى بِهِم مِن مَصرَعِ المَوتِ مَصرَعَا

ويلاحظ على هذا الشاعر عند حديثه عن الموت ولقياه أنه لا يستخدم من حروف التسويف إلا السين لإحساسه الفاجع بقربه من الموت مع جهله بكيفية مصرعه الذي جاء به نكرة .

وقد كان الجاهليون خلال حياتهم وغزواتهم يتوقعون الموت في كل لحظة ومكان ، يقول عروة من الطويل : [3]

---

[3] الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره ، د . صلاح عبد الحافظ ، ص :195 .
[2] ديوان عروة ، كرم البستاني ، ص : 39 . ثغر كل ثنية: الثغر : موضع المخافة ، محصر : أي حابس .

وَأَنَّ المَنَايَا ثَغـــــرُ كُلِّ ثَنِيَّـــةٍ فَهَل ذَاكَ عَمَّا يَبتَغِي القَومُ مَحصِرُ

ولأن الموت في كل مكان يذهبون إليه ، فقد كانوا لا يرهبون الموت ، ولا يبالون به ، فمن لا يموت في الغزو والإغارة يموت بين عمودي خيمته جالســـاً ، إنه يقين بحتمية الموت الذي لا ينجي منه الهرب أو الحذر ، يقول الشنفرى من الطويل : [4]

إِذَا مَا أَتَتنِي مِيتَتِـــــــي لَم أُبَالِهَا وَلَم تُذِر خَالَاتِي الدُّمُوعَ وَعَمَّتِي

وَلَو لَم أَرِم فِي بَيـــــتِي قَاعِداً إِذَن جَاءَنِي بَينَ العَمُودَينِ حُمَّتِي

لقد أيقنوا أن القعود عن الغزو ، وعدم التعرض للموت لا ينجيهم منه ، فكان لا بد من الخروج ، ولا بد من ملاقاته ، يقول عروة من الطويل : [5]

تَقُولُ سُلَيـــــمي : لَو أَقَمتَ لِسرّنَا وَلَم تَدرِ أَنِّي لِلمُـــــــقَامِ أَطوّفُ

لَعَلَّ الَّذِي خَوَّفتَنِـــــــــا مِن يُصَادِفُه فِي أَهلِهِ المُتَخَلِّفُ أَمَامِنـــــــــا

"إنه صراع مستمر بحثاً عن الرزق ، أو طلباً للثأر ، فليس هناك استقرار أو اطمئنان ، فالإرادة والهمة العالية لا تقبل بالخ ضوع والذل ، بل تجعل هذه الدوافع والحوافز ملهماً للو صول إلى الغايات التي تريح النفس للمساهمة في العطاء والبذل " [6] .

لا ينجي حذر من قدر:

مع إدراك الجاهليين لحتمية الموت ، ويقينهم الكامل بحلول المنية ، استهانوا بالموت ، أو اســـتهانوا بالحياة ، فقد كانت حياتهم موتاً وموتهم حياة ، لأنهم اختاروا الحياة بعز، أو الموت

[3] ديوان الشنفرى ، طلال حرب ، ص : 39 . لم أرم : لم أبرح ، العمودين : عمودي الخباء .
[4] المصدر نفسه ، ص : 51 .
[1] قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د. مصطفى ناصف ، ص : 175 .

بـ شرف ، وهذا المبدأ فرض عليهم الـ سعي إلى الموت ، وعدم الحذر منه ، يقول الـ شنفرى من الكامل : [7]

يَا صَاحِبَـــيّ هَلِ الحِــذَارُ مُسَلِّمِــي أَوْ هَلْ لِحَتْفِ مَنِيّــةٍ مِنْ مَصْــرِفِ

لقد اتخذ الجاهليون " من التسليم بالموت منطلقاً للمخاطرة ، فما دام الموت واقعاً محتماً ، فإن مواجهة الأخطار لا تدني موتاً ، وعدم مواجهتها لا تمنع موتاً " (4)

يثور الشاعر في حياته على كل شيء ، ويستخدم أي شيء ليصل إلى ما يريد ، ويوصل فكرته التي نا ضل من أجلها ، فقد ا ستخدم أ سلوب النداء للتنبيه ، فهو لا ينادي صاحبيه، وأي أصحاب له : إنه إما أن يكون وحيداً ، أو له أصحاب ولكنهم ليسوا بحاجة إلى من يلفت عناية انتباههم إلى حتمية الموت ، ولذا يمكن القول إن الـ شاعر لعله يخاطب من يلومه على مغامراته ، وإقحام نفسه للمهالك ، أو لعله يحاول إقناع نفسه التي تلومه على المخاطرة ، فيأتي الاستفهام التقريري وهو حا ضر الإجابة ، وجاءت (أو) منقطعة عما قبلها ، فلا إفادة للتخيير هنا ، وإنما الإفادة في عدم النجاة من الموت وبذلك لا ينجي الحذر منه.

لقد لمس الجاهليون من خلال حياتهم أن الموت غاد ورائح ، وهو في غدوه ورواحه لا يسلك طريقاً يمكن تجنبها ، ولكنه يسير بغير هدى ، فمن يصب يمته ومن يخطئ يعمر فيهرم ، يقول تأبط شراً من الطويل : [8]

وَإِنَّ سَـــوامَ المَوتِ تَجرِي خِلَالَنَا رَوَائِحُ مِن أَحـــــــــدَاثِهِ وَبَوَاكِرُ

---

(3) ديوان الشنفرى ، طلال حرب ، ص :26 .
(1) ديوان تأبط شراً ، طلال حرب ، ص : 38 ، سوام الموت : المنايا شبهها بالإبل السائمة في المرعى .

إنه القدر الذي يســـيّر الموت ، ويجعلها تختار من تختار ، وتترك من تترك ، فلا خوف من الموت ، ولا رغبة في الحياة ، وليمض الشـــاعر لشـــأنه الذي هو ماضٍ فيه ، وليقل الناس ما يـ شاءوا ، فلا التفات لكلامهم ، ولا وقت لـ سماعه وكيف لا وهي ميتة واحدة يموتها الإن سان ، يقول الشنفرى من الطويل : (2)

دَعِينِي وَقُولِي بَعدُ مَا شِئتِ إِنَّنِي سَيُغدَى بِنَعشِي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ

لعل الشاعر لا يقصد ميتةً واحدة ، فهو مدرك لذلك أشد الإدراك ، ولكنه يتوجه صوب حياة واحدة يريد أن يحياها ، ويقضي منها مآربه التي تشفي غليله ، وتبرئ سقمه .

ولعله أيضـــاً لا يحرص على هذه الحياة ، وليكن الموت باكراً في الغدو وليس في الآصال، وليأت سريعاً بدلالة السين وليس بسوف : (سيغدى) .

لقد عانى الشنفرى في حياته ، وتجرع مرارة الهوان وذاق الذل حينما قتل أبوه ، وسبيت أمه ، ثم قتل أخوه ، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير: لطمة الفتاة له ، فأيقظت فيه نفسية ممزقة ، وفتحت جروحاً غائرة ، وأشعلت بركاناً لا يهدأ ، وقذفت حمماً تصيب القريب والبعيد.

وتبرز هذه المعاناة في شعره بلقاء الموت الذي يشعر في قرارة نفسه أنه سيلقاه وحيداً طريداً شريداً لا أهل يشيعونه ويبكون عليه ، ولا مـــــال يتركه ويخلفه وراءه ،

يقول من الطويل: (9)

وَمَن يَكُ مِثـــــلِي يَلقَهُ المَوتُ خَالِياً مِنَ المَالِ وَالأَهلِينَ فِي رَأسِ فَدفَدِ

(3) المصدر نفسه ، ص : 23 ، الفدفد : المرتفع كجبل ونحوه .

ريح الموت وثيابه:

حين أيقن الجاهليون بحتمية الموت أيقنت معهم حوا سهم ذلك ، وحين أح سوا دنو أجلهم أح ست حوا سهم ذلك وتذوقته ، فكانوا يرون الموت رأي العين ، ويلتم سونه ويتلم سونه ، بل ويشتمون ريحه المقبلة نحوهم ، يقول تأبط شراً من الكامل : (2)

وَنَشِيتُ رِيحَ المَوتِ مِن تِلقَائِهِم وَكَرِهتُ كُلَّ مُهَـــنَّدٍ قَضَّابِ

لقد أقبل أعداء الـ شاعر تتقدمهم ريح الموت التي ا شتمها قبل لقائهم ، وما كانت كراهته للســـيف إلا لما يحمله معه من موت محتوم ، ومع ذلك فقد وجد الأنس في الموت ، وليس في الحياة ، يقول الشنفرى من الرجز : (10)

أُونِسُ رِيحَ المَوتِ فِي المَكَاسِـرِ لَا بُدَّ يَوماً مِن لِقَاءِ المَقَـــادِرِ

" لقد ضاق الـ شنفري بالحياة ذرعاً ، فلجأ إلى أمه الأرض يطلب الأنس من الوح شة ، والاقتران بدل الوحدة ، والسكينة بدل القلق ، والحرية بدل القيود ، والاتساع بدل الضيق "(11)

وأي أنس في وحشة الموت ، وأي اقتران و سكينة في ريحه ؟ إنها حرية الحياة ، واتساع آفاق النفس التي تعاني ضيق الظلم ومرارة الذل .

وحيث إن الموت في كل مكان ، ويرونه بالعين ، ويشتمّون ريحه ، فلا بد من الاستعداد للقائه ، والتجهيز له ، ولبـــس الثياب التي تليق به ، إنها ثياب المـــوت ،

يقول عـــــروة من الطويل : (12)

(2) ديوان تأبط شراً ، طلال حرب ، ص : 24 .
(3) قراءة متعاطفة مع الشعر الجاهلي ، د . سعد دعبيس ، ص : 41 .
(4) ديوان عروة ، كرم البستاني ، ص : 48 ، يوائم : يوافق ، السائم : الذاهب على وجهه .

لَبُوسٌ ثِيَابَ المَوتِ حَتَّى إِلَى الَّذِي يُوَائِمُ إِمَّا سَائِمُ أَو مُصَـــــارِعُ

وهذا من لطائف الحذف للمبتدأ (أنا) والاكتفاء بالخبر (لبوس) ففي " ترك الذكر أفصـــح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة " [13]

لقاء الموت:

مع هذه المســـلمات في حياة الجاهليين التي تؤكد حتمية الموت ، ومع هبوب رياحه تلقاءهم، كان على الجاهليين البروز له ، والخروج لملاقاته ، وليكن ذلك بعد أن يكسب الشاعر حمداً ، وينال كبرى المكارم ، ويوجب الفخر بذكره ، يقول تأبط من البسيط : (5)

سَـــــدِّد خِلَالَكَ من مَالٍ تُجَمِّعُهُ حَتَّى تُلَاقِي الَّذِي كُلُّ امرِيءٍ لَاقِي

إنها توجيه الدعوة لعموم الناس لينالوا الحمد ، ويكســـبوا الثناء ، وليكن ذلك بالكرم والمروءة وبذل الأموال ، وحين يحين الأجل ، ويلقى الشـــاعر منيته ، يلقها حميداً من الذم ، بعيداً عن البخل ، يقول حاتم الطائي من الطويل : [14]

فَذَلِكَ إِن يَلـــــــقَ المَنِيَّةَ يَلقَهَا حَمِيداً وَإِن يَستَغـــــنِ يَوماً فَأَجْدَرِ

لقد وجد الجاهليون حياتهم في الموت ، واســـتلذوا لقاءه ، وأحبوا منازلته ، والخروج له، يقول تأبط شراً من الطويل : [15]

وَكُنتُ أَظُنُّ المَوتَ فِي الحَيِّ أَو أُرَى أَلَذَّ وَأُكرَى أَو أَمُوتَ مُقَنَّـــعَا

---

(5) دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص : 146 – 152 .
(2) ديوان عروة ، كرم البستاني ، ص : 37 .
(3) ديوان حاتم الطائي ، كرم البســـتاني ، ص : 112. كنت أظن : كنت أعدني ميتاً ما لبثت في الحي ، ألذ وأكرى : أي كيف أنال لذة وأنعم بالكرى كغيري يظل كذلك إلى ان يُقَنَّع بالشيب أو يموت بين أهله .

ولقد كانوا بالخروج لا ينازلون أعداءهم ، وإنما يلاقون الموت ، ويقارعون الدهر، يقول تأبط شراً من الطويل : [16]

فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهرِ مَا عَاشَ حُوَّلٌ إِذَا سُدَّ مِنهُ مَنخَرٌ جَاشَ مَنخَرُ

وقد تطول هذه المقارعة ، ويمتد زمنها ، ولكن المتحكم في إطالة زمن النزال هو الشاعر نفسه وليس الموت ، يقول تأبط شراً من الطويل : [17]

عَلَى غِرَّةٍ أَو جَهرَةٍ مِـــن مُكَانِسٍ أَطَالَ نِزَالَ المَوتِ حَتَّى تَسَعسَعَا

إن في الموت حكمة ، وفيمن مضى عبرة ، وهي أن الحياة واحدة ، والموت واحد ، فلا خوف من الموت ، ولا رغبة في الحياة ، ولتكن الحياة عزيزة كريمة كحياة أ سلافهم و ساداتهم ، يقول عروة من الطويل : [18]

تُخَوِّفُنِي رَيبَ المَنون وَقَد مَضَى لَنَا سَلَفٌ قَيسٌ مَعـــــاً وَرَبِيعُ

ولهذا كانوا يســـارعون في لقاء الموت ، ولا يثاقلون إلى الأرض ، كأن بهم حنين مضـــمر أو شوق ظامئ يدفعهم إلى الموت دفعاً ، يقول السُّليك بن السلكة من الرمل : [19]

اخرِجِ النَّحَّامَ واعجَل يَا غُلَامَا وَاقذِفِ السَّرجَ عَلَيهِ واللِّـــجَامَا

وَاخبِرِ الفِتـــيَانَ أَنِّي خَائِضٌ غَمرَةَ المَوتِ فَمَن شَـــاءَ أَقَامَا

---

(4) ديوان تأبط شراً ، طلال حرب ، ص : 33 ، قريع الدهر: المجرب للأمور ، الحول : البصير بتحول الأمور ، إذا سد منه منخر: كناية عن القدرة على الخلاص من الشدة .

(5) ديوان تأبط شراً ، طلال حرب ، ص : 39 ، الغرة : الغفلة ،المكانس : مأوي الغزال في الشجر ، تسعسعا: من قولهم تسعسع الشهر إذا ولى أكثره .

(1) ديوان عروة ، كرم البستاني ، ص : 46 ، قيس: هو قيس بن زهير، وربيع: هو الربيع بن زياد وهما من سادات عبس .

(2) ديوان الشنفرى ، طلال حرب ، ص : 75 ، النحام : اسم فرسه .

لقد صدرت أوامر أربعة تنبئ عن عجلة الخروج ، و سرعة للقاء الموت ، وإذا قذف الـ سرج على الفرس قذفاً ، فكذلك يتقاذف الصعاليك على معانقة الموت .

ولا ينجي الاختباء من الموت بأي حال من الأحوال ، ولا يجدي التحصـــن منه بحراس أشداء ، أو كلاب مدربة ، أو بالإقامة في حصون منيعة وأبواب مغلقة ، كل ذلك لا يحول دون الموت ، يقول أبو الطمحان القيني من الطويل : (20)

لَو كُنتُ فِـــي رَيمَانَ تَحرسُ بَابَهُ أَرَاجِيلُ أُحبُوشٌ وَأَغضَفُ آلِفُ

إِذَن لأَتَتنِي حَـــيثُ كُنتُ مَنِيَّتِي يَخُبُّ بِهَا هَادٍ بِأَمـــرِي قَائِفُ

فَمِـــن رَهبةٍ آتِي المُتَالِف سَادِراً وَأَيّةُ أَرضٍ لَيسَ فِيـــهَا مَتَالِفُ

يصور الشاعر المنية كناقة يقودها دليل بارع ، ولكنه لا يرسم لوحته بالألوان الواضحة، وإنما يعتمد على التظليل في إخفاء بعض الجوانب إخفاء فنياً رائعاً ، فيخفي المشبه به ، ويشير إليه بشـــئ من لوازمه ، فتعتمد اللوحة على الظل أكثر من النور لاعتمادها على الاســـتعارة المكنية (21).

وإذا كان يقين أبي الطمحان بحتمية الموت جعله يصور هذه الصورة الأرضية ، وأخلد إلى الأرض ، فإن أباذؤيب الهذلي كان أبعد منه خيالاً وتصويراً لحتمية الموت ، وارتقى أسباب السماء بسلم ، يقول من الطويل : (22)

20( ) خزانة الأدب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، ج : 2 ، ص :116 ، ريمان : حصن باليمن ، أراجيل : جمع راجل، الأحبوش : جماعة الحبش ، أغضف : كلب مدرب ، الآلف : المستأنس بمن يحرسهم ، يخب بها ، يسير بها خبباً، الهادي بالأمر: العارف به ، القائف : متتبع الآثار، المتالف : المهالك .

21( ) ينظر شعرنا القديم رؤية عصرية ، أحمد سويلم ، ص : 307 .

(22) ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، د . انطونيوس بطرس ، ص : 187 ، نشيبة : اسم المتوفى ، الطراق : الذين يضربون بالحصى ويتكهنون .

يَقُولَونَ لِي لَو كَانَ بِالرَّملِ لَم يَمُت نُشَيبَةُ وَالطُّرَّاقُ يَكذِبُ قِيلُهَا

وَلَو أَنَّنِي استَودَعتُه الشَّمسَ لَارتَقَت إِلَيهِ المَنَايَا عَينُهَا وَرَسُولُهَا

وتظهر حكمة الموت عند أبي الطمحان وأبي ذؤيب في حتميته ، ونزوله بالإنسان في أي مكان كان كائناً به مصـــــدقاً لقوله تعالى : ﴿ أَينَ مَا تَكُونُوا يُدرِككُّمُ المَوتُ وَلَو كُنتُم فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [23].

وإذا كان الموت قتلاً غالباً ما يكون في المعارك ، فهل ينجي منه توقي الغارات التي هي مورد للقتل ؟ لقد أضحى الموت قتلاً دستوراً للحياة عند العربي الجاهلي [24] .

إن قيام حياة المجتمع الجاهلي على الغزو والإغارة جعلتهم في ديمومة مع لقاء الموت ، وحين كثر لقاؤهم للموت ، كثر ما أخذ الموت منهم ، وأخذ يحصدهم حصداً ، فعمت المصيبة ، وفقدوا الأخ والعم والصـــــديق والقريب ، ومن هنا كثرت مراثيهم ، وأحاديثهم عن الموت والتفكر فيه ، يقول أبو صخر الهذلي من الطويل : [25]

وَكَم مِن أَخٍ أَو عَمٍّ صِدقٍ رُزِئتُـــــهُ أَو ابنِ أَخٍ سَمحٍ كَرِيمِ الضَّرَائِبِ

وَمِن صَاحِبٍ لِي وَابنِ عَمٍّ تَتَابَعُوا وَمَن ذَا مِنَ الأَحيَاءِ لَيسَ بِذَاهِبِ

لقد تجرع الشاعر مرارة الفقد في خمسة أصناف من ذويه ، فاكتوى بنار الموت ، غير أنه يواسي نفسه بأن كل حي ميت ، وأن هذا المصير ينتظر الجميع دون استثناء .

[23] القرآن الكريم ، سورة : النساء ، الآية : 78 .
[24] ينظر صورة الحياة والموت عند شعراء ربيعة في العصر الجاهلي ، مفيدة عبد الحميد ، الفصل الثاني ، المبحث الثالث .
[25] شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر , م : 2 ، ص : 917 .

وإذا غامر الـ شاعر ، وخاض المعارك ، ورجع سالماً من الموت ، فهو على يقين بأن الموت في انتظاره ، ولن يخطئه في المرة القادمة ، يقول يزيد العقيلي من الطويل : [26]

إِذَا مَا المَنَايَا أَخطَأتكَ وَصَادَفَت حَمِيمَكَ فَاعلَم أَنَّهَا سَتَعُودُ

" ولذلك عاش أغلب الشـــعراء الجاهليين المتمردين في أجفان الردى ، فغلب على مشاعرهم القلق، وجفاهم الإحساس بالأمان " [27].

الرثاء :

يعد الرثاء من الفنون التي جوّد فيها الشعراء , وهو من الموضوعات القريبة إلى النفس , لأنه تعبير مبا شر و صادق قلما ت شوبه الـ صنعة أو التكلف , فهو تعبير عن خلجات القلوب , ويفيض لوعة صادقة , وحسرات على فقد الأحبة [28].

ولأن الحياة الجاهلية – عامة – وحياة الفر سان والـ شعراء – خا صة – قائمة على حرب ودماء وغارات , فكثر الرثاء لهؤلاء القتلى الذين فجعوا بهم , الأمر الذي جعل هذه القصـــائد تؤجج الأحزان , وتثير الغيظ للانتقام ، وأخذ الثأر من الأعداء .

وينقسم شعر الرثاء إلى ثلاثة أساليب أو أنواع فمنه [29]

الندب : وهو البكاء والنواح على الميت بألفاظ حزينة .

التأبين : وهو الثناء على الميت , وذكر فضائله , وتعداد محامده .

---

[26] خزانة الأدب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، ج : 2 ، ص : 138 .
[27] الانتماء في الشعر الجاهلي ، د . فاروق سليم ، ص : 325 .
[3] ينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه , د . يحي الجبوري , ص : 311 .
[4] المرجع نفسه , ص : 312 - 338 , وكذلك شعر الرثاء , د . مصطفى الشوري , ص 119 – 123 .

العزاء : وهو الصبر بالتفكر في مصير الناس , ورحلة الحياة , وحتمية الأقدار .

ولسنا هنا بصدد الدخول في تفاصيل أساليب الرثاء , أو مناقشتها إلا أنه لابد من الإشارة إلى أن كثيراً من شعر الرثاء ليس مجرد ظاهرة تأبينية فقط , إنه ينطوي على إحـ ساس قوي بمـ شكلة الموت , وواقعة الفناء " وفن الرثاء قد يـ شغلنا ظاهره من الندب والتأبين والعزاء عن موقف أ سلافنا من مـ شكلة الحياة والموت , وتطور هذا الموقف من النظرة العابرة إلى النظرة التحليلية في حقيقة الحياة ، وحقيقة الموت ... ففي الظاهر رثاء , وفي الحقيقة تفكير فلســـفي خليق بالبحث والدرس " [30] .

فكيف رثاء الجاهليون موتاهم ؟ وكيف تدبروا في الموت وحكمة الحياة ؟ وهل صبروا وتجلدوا أم جزعوا ووهنوا ؟ وهل كانت العاطفة التي تصـــدر منهم قوية بقرب رابطة الدم من الميت , أم أن عواطفهم هي نفسها مع اختلاف درجات الصلة والقربى ؟ .

هذه التساؤلات وغيرها هي ما سنحاول الإجابة عنها من خلال تسليط الضوء على بعض مراثي الشعراء لأهلهم وأقاربهم .

رثاء الأبناء:

يحاول بعض الـ شعراء في موقف الرثاء أن يمهد للمو ضوع بإ شاعة جو ينا سب حالة الموت التي يتحدث عنها , فينـ شد التأ سي في كثرة من فقد من أحبة في هذه الحياة , يقول أبو صخر الهذلي من الطويل : [31]

وَكَم مِن أَخٍ أَو عَمٍّ صِدقٍ رُزِئتُهُ أَو ابنِ أَخٍ سَمحٍ كَرِيمِ الضَّرَائِبِ

(5) فصول في الشعر ونقده , د . شوقي ضيف ، ص : 20 .
(31) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراح , محمود شاكر , م : 2 ، ص : 917 .

وَمِن صَاحِبٍ لِي وَابنِ عَمٍّ تَتَابَعُوا وَمَن ذَا مِنَ الأَحيَاءِ لَيسَ بِذَاهِبِ

فيذكر فضلهم وكرمهم وشجاعتهم وحلمهم , ومع ذلك لم تشفع لهم صفاتهم في النجاة من الموت , يقول من الطويل : [32]

فَلَا نَائِبَاتُ الدَّهرِ يَرجِعنَ هَالِكًا إِلَى أَهلِهِ وَالدَّهرُ جَمُّ النَّوَائِبِ

فالموت قدر الأحياء , وكل حي يتحرك في هذه الدنيا والموت قريب منه ، لصيق به , بل هو قابع تحت ردائه , يقول من الطويل : [33]

فَيَغدُو الفَتَى وَالمَوتُ تَحتَ رِدَائِهِ وَلَا بُدَّ مِن قَدرٍ مِنَ اللهِ وَاجِبِ

ويتحدث عن طول الأمل , ويتأمل حال الإنســـان مع الموت في بيت واحد , فيعقبه ببيت بعده واصفاً حال من مات ، وما يعد من نسج للمنايا التي تطلبه , ويضيف بأسلوب النهى في بيت آخر حكمة اكتســبها من حياته , وينصـــح بها غيره , أو لعله يخاطب نفســـه , يقول من الطويل : [34]

يَقُولُ غَداً أَلقَى الَّذِي اليَومَ فَاتَنِي وَيَأمُلُ أَن يَلقَى سُرُورَ العَجَائِبِ

وَيَنسَى الَّذِي يَمضِي وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُسَدَّى لَهُ نَسجُ المَنَايَا الطَّوَالِبِ

فَلَا تَغتَبِط يَوماً بِدُنيَا وَإِن صَفَت وَلَا تَأمَنَنَّ الدَّهرَ صَرفَ العَوَاقِبِ

ولا تخفى عليك دلالة الفعل المضارع الذي أكثر منه الشاعر (يرجعن – فيغدو – يقول– ألقى – يأمل – يلقى – ينسى – يمضي – يسدي – تغتبط – تأمنن) .

---

[2] شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر , م : 2 ، ص : 918 .
[3] المصدر نفسه ، م : 2 ، ص : 918 .
[4] المصدر نفسه , م : 2 ، ص : 918 .

وما هذه الأفعال المـ ضارعة إلا تعبير عن ا ستمرارية الموت , وديمومة حدوثه , وكثرة نوازله بالشاعر .

" فأزمة أبي صخر في مقطوعته هذه تكمن في شدة وطأة الزمن الحا ضر عليه ، فهو هادم لطموحه واقف بوجه ســـعادته وأحلامه ، ولذلك فلا يجد جدوى من ذمه ولومه ، بل اتخذ طريقا آخر ربما انفرد فيه ، وهو محاولة تجاوزه إلى الغد الكفيل بتحقيق رغباته وطموحه " (35)

وما هذا الحديث عن الموت والأموات إلا تعبير عن مأ ساة يعانيها الـ شاعر , ولم يذكرها بعد , أنه يمهد لذلك , أو يعزي نفسه بكثرة المصائب .

وما يقوي هذا التـ صور أنه حين ذكر ستة أ صناف من صلات القربى رزؤه الموت بفقدهم, لم يذكر صنفا أقرب في الوشيجة ، وأقوى في الفاجعـــــــــــــــة , وهو الابن , يقول من الطويل : (3)

وَقَد هَاجَنِي طَيفٌ لِدَاوُودَ بَعدَمَـــــــــــــــا ... دَنَت فَاستَقَلَّت تَالِيَاتُ الكَوَاكِـــــــبِ

وَمَا فِي ذُهُولِ النَّـــــــــــاسِ مِن غَيرِ سَلْـــوَةٍ ... رَوَاحٌ مِنَ السُّقمِ الَّذِي هُوَ غَالِـــبِي

فَهَل لَكَ طِبٌّ نَافِعِـــــــــــــــــي مِن عَلَاقَةٍ ... تُهَيِّمُنِي بَينَ الحَشَـــــــــــــا وَالتَّرَائِبِ

وَلَولَا يَقِينٌ أَنَّمَا المَـــــــــــــــوتُ عَزمَةُ ... مِنَ اللهِ حَتَّى يُبعَثُوا لِلمَحَـــــــــاسِبِ

لَقُلتُ لَهُ فِيمَـــــــــــــــــــــا أُلِمُّ بِرَمسِهِ ... هَل أَنتَ غَداً غَادٍ مَعِي فَمُصَاحِبِي

(1) شعرنا القديم رؤية عصرية ، أحمد سويلم , ص : 165 .

ولا يغرنك يقين الموت الذي يمنعه من هذا القول ! لقد قاله , وعبّر عن خلجات نفســـه , وتنفس إحـ سا سا عميقا بالألم والمرارة اللذين يتعمقان في وجدانه بـ سبب الفقد , وهو ما يؤكده بإعقابه تـ ساؤلاً للمخاطب عن غائب لا يـ ستطيع نـ سيانه , وهذا الغائب لا يـ ستطيع العودة , فلا ينال إحدى الحسنيين : النسيان أو عودة ابنه , يقول من الطويل : [36]

فَمَاذَا تَرَى فِي غَائِبٍ لَا يُغِبُّنِي فَلَستُ بِنَاسِيهِ وَلَيسَ بِآئِبِ ؟

ويبدو أن الألم الذي يعتصر كان كبيرا حيث استغرق منه التمهيد لرثاء ابنه ستةً وعشرين بيتا, وكذلك يبدو أنه لا أمل له بالحياة بعد هذه الفجيعة حيث يدعو الله أن يرزقه بالـ شهادة التي يتمنى بـها أن يلاقي ابنه , فإذا تـعذر لـقاؤه في الدنيا فيلحق به في حياة أخرى , يقول من الطويل : [37]

سَأَلتُ مَلِيكِي إِذ بَلَانِي بِفَقدِهِ وَفَاةً بِأَيدِي الرُّومِ بَينَ المَقَانِبِ

لقد أرق الموت مـ ضجع الـ شعراء , وفجعهم في أقرب الناس إليهم فتوخى فلذات أكبادهم, وأ صابها بـ سهامه , الأمر الذي جعلهم يحـ سون بوطأته ثقيلا متمثلا في الليل الذي لا ينقـ ضي , يقول صخر الغي من الوافر : [38]

أَرِقتُ فَبِتُّ لَم أَذُقِ المَنَامَا وَلَيلِي لَا أُحِسُّ لَهُ انصِرَامَا

لَعَمرُكَ وَالمَنَايَا غَالِبَـــــاتٌ وَمَا تُغنِي التَّمِيمَاتُ الحِمَامَا

لَقَد أَجرَى لِمَصرَعِهِ تَلِيـدٌ وَسَاقَتهُ المَنِيَّةُ مِـــــن أَدَامَا

---

(3) المصدر نفسه , م : 2 ، ص : 919 .
(1) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر, م : 2 ، ص : 923 .
(2) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراح , محمود شاكر , م : 1 ، ص : 287 . انصراما : ذهابا ، التميمات : المعاذات ، الحمام : القدر ، العصم : الوعول ، الأوابد : المستوحشة ، تليد : اسم ابنه .

أَرَى الأَيَّامَ لَا تُبقِي كَرِيماً وَلَا العُصَمَ الأَوَابِدَ وَالنَّعَامَـا

يحاول الشـــاعر تجرع مرارة الفقد , فيختزل هذا الأرق الذي منعه النوم , ويحاول أن يطوي الليل الثقيل الطويل , فينتقل في البيت الثاني إلى غلبة الموت , وحتمية القدر الذي لا يغني منه شيء , وكما أن ابنه قد مات , فكذلك كل كريم ، ولا يقتصر الأمر على البشر فقط , بل يتعداه إلى الحيوانات والطيور,الأمر الذي يعطيه قليلاً من التأســـي والتعزي بســـنة الكون والحياة .

إنه موقف فاجع عاناه الـ شاعر , وانفعل به وعبر عنه , وحين خرج يلتمس الـ سلوى في مصابه إذ بحمامة تنوح , فيسألها عن ابنه وتسأله عن ابنها , فيرد كلاهما صاحبه بيأس .

" والأبيات كلها وحدة واحدة , تحمل فكرة واحدة , وإحساسا واحدا أيضا " [39]

يقول صخر الغي من الوافر : [40]

وَمَا إِن صَوتُ نَائِحَةٍ بِلَيلٍ بِسَبَلَ لَا تَنَامُ مَعَ الهُجُودِ

تَجَهنَا غَادِيَينِ فَسَايَلَتنِـــــي بِوَاحِدةٍ وَأَسأَلُ عَن تَلِيـــدِي

فَقُلتُ لَهَا فَأَمَّا سَاقُ حُـــــرٍّ بَانَ مَعَ الأَوَائِلِ مِن ثَمُـــودِ

وَقَالَتْ لَن تَرَى أَبَداً تَلِيدًا بِعَينِكَ آخِرَ الدَّهرِ الجَدِيدِ

كِلَانَا رَدَّ صَاحِبَهُ بِيَأسٍ وَتَأنِيبٍ وَوِجدَانٍ بَعِيـــــدِ

(3) شعر الرثاء في العصر الجاهلي , د . مصطفى الشوري , ص : 140 .
(4) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر , م : 1 ، ص : 293 - 294 ، نائحة : حمامة ، سبل : بلد ،الهجود : النيام، تجهنا : تقابلنا ،ساق حر : ولدها ، وجدان بعيد : يبعد منه وجدانه .

وهذه الحوارية صورة خيالية لحمامة تشبهه بفقدها ولدها الوحيد , وبكونها لا تنام كما لا ينام هو عندما ينام الناس .

وإذا خرجت هذه الحوارية عن كونها وصفا لمشهد , أو تصويرا للطبيعة , فهي بلا أدنى شك نوعٌ من القصة القصيرة لأننا " نجد فيه كل معالم القصة من الوصف والحوار والتحليل النفسي ... إلا أنه قصص عفوي غير مقصود " [41]

ويبدو أن الليل يؤرق الشعراء ليس في المقطوعات السابقة فقط , وإنما في عديد مراثيهم , وكما يعود عليهم الليل بالأرق , كذلك تعودهم الأحزان التي تتجدد تجدد الليل والنهار, يقول ساعدة بن جؤية من الطويل : (1)

أَلَا بَاتَ مَن حوَلِي نِيَامـــــــــــــاً وَرُقَّداً وَعَاوَدَنِي حُزنِي الَّذِي يَتَجَـــــــدَّدُ

تَذَكَّرتُ مَيتًا بِالغَرَابَةِ ثَاوِيـــــــــــــــًا فَمَا كَادَ لَيلِي بَعدَ مَا طَالَ يَنفـــــــذُ

شِهَابِي الَّذِي أَعشُو الطَّرِيقَ بِضَـــــــــــوئِهِ وَدِرعِي وَلَيلُ النَّاسِ بَعدَكَ أَســـــوَدُ

وتلاحظ كيف تظلم الأبيات وكيف تضئ حينا , وتعشو حينا آخر بفقد ابنه , وكيف يتكرر ذكر الليل .

ويحاول الشـــعراء الصـــبر والتجلد , إلا أن الحزن كبير , فتغلبهم دموعهم التي تبل كل شيء من كثرتها , يقول المُتنخّلُ من البسيط : [42]

مَا بَالُ عَينِكَ تَبكِي دَمعُهَا خَضِلُ كَمَا وَهَي سَـــــــرِبُ الأَخرَاتِ مُنبَزِلُ

(1) شعرنا القديم والنقد الجديد ، وهب أحمد رومية, ص : 414 .
(3) المصدر نفسه , م : 3 ، ص : 1280 – 1282، السرب : السائل يكون فيه وهيٌ فينسرب الماء منه ، الأخرات : جمع خرت وهو الثقب ، العَلُّ : الصغير الجسم الكبير المسن ، مقتبل : مستأنف الشباب ، أثيلة : اسم ابنه .

فَقَد عَجِبتُ وَمَا بِالدَّهرِ مِن عَجَبِ أَنَّي قُتِلتَ وَأَنتَ الحَـــــــــازِمُ البَطَلُ

لَيسَ بِعَلٍّ كَبِيرٍ لَا شَبَـــــــابَ بِهِ لَكِن أُثَيلَةُ صَافِي الوَجـــــــــــهِ مُقتَبَلُ

ولا يخفى عليك تحسر الشاعر على ابنه الذي تهيأت له أسباب الحياة والنجاة من شجاعة وشباب , ومع ذلك تخطفته المنيه , وأضحى الشاعر مكلوماً بفقده .

وإذا كان الإنسان يستطيع الصبر والتأسي في فقد قريبه أو ابنه , فكيف يستطيع التصبر في فقد خمسة أبناء في مرة واحدة ؟ إنها فاجعة بكل المقاييس الإنسانية , ومع ذلك يبدأ الشاعر قصيدته يتعجب منكرا بكاءه بسبب المنون , يقول أبوذؤيب الهذلي من الكامل : (43)

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيبِهَا تَتَوجَّعُ وَالدَّهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مَن يَجزَعُ

" وتعجب الشاعر وإنكاره صادران عن قناعة عامة بأنه لا ينبغي الجزع من الدهر , وما يقترن به من أحداث وم صائب , ومن قناعة خا صة ترتبط بجملة الحال : والدهر ليس بمعتب من يجزع " (44)

ولم يكن التوجع والألم في النفس بمنأى عن الجســـم , فقد أثر فيه , واعتراه الهزال , واعتلاه الشجوب ، يقول أبوذؤيب الهذلي من الكامل : (45)

قَالَتْ أُمَيمَةُ مَا لِجِسمِكَ شَاحِبًا مُنذُ ابتَذَلتَ وَمِثلُ مَالِكَ يَنفـــــــعُ

أَم مَا لِجَنبِكَ لَا يُلائِمُ مَضجَعًـــــا إِلَّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذَاكَ المَضجَـــــعُ

(1) ديوان أبي ذؤيب الهذلي , د . أنطونيوس بطرس , ص : 138 .
(2) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي , د . حسني يوسف , ص : 64 .
(3) ديوان أبي ذؤيب الهذلي , د . أنطونيوس بطرس , ص: 139 - 145، ابتذلت: ابتذلت نفســك وتركت الزينة ، لا يلائم: لا يوافق، أقض : أي صــار تحت جنبك مثل قفص الحجارة ، أعقبوني : أورثوني، فتخرموا : أخذوا واحدا واحدا وترخمتهم المنية ، ناصــب : فيه نصب ، إخال : أظن وهي هاهنا يقين ، أتضعضع : أتكسَّر .

فَأَجَبتُهَا أَن مَا لِجسمِي أَنـــــــــــهُ أَودَى بَنِيَّ مِنَ البِلَادِ فَوَدَّعُـــوا

أَودَى بَنِيَّ وَأَعقَبُونِيَ حَســـــــرَةً بَعدَ الرُّقَادِ وَعَبرَةً لَا تُقلِـــــــعُ

وَلَقَد أَرَى أَنَّ البُكَــاءَ سَفَاهَـــــــةٌ وَلَسَوفَ يُولَـــعُ بِالبُكَى مَن يُفجَعُ

سَبَقُــوا هَوَيَّ وَأَعنَقُوا لِهَوَاهُـــمُ فَتُخُرِّمُوا وَلِكُـــــلِّ جَنبٍ مَصــرَعُ

فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ نَاصــبٍ وَإِخَـــــالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُستَتبَـــــــعُ

وَلَقَد حَرَصتُ بِأَن أُدَافِعَ عَنهُـــمُ فَإِذَا المَنِيَّةُ أَقبَلَت لَا تُدفَـــــــــعُ

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنشَبَتْ أَظفَـــــــارَهَا أَلفَيتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنفَـــــــــعُ

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِـــــــمُ أَنِّي لِرَيبِ الدَّهرِ لَا أَتَضَعضَـــــــعُ

وَالنَّفسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبتُـــــــهَا وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيـــــــلٍ تَقنَـــــعُ

قال الأصمعي عن آخر بيت : " هذا أبرع بيت قالته العرب" [46] .

ولا تستطيع إلا أن تقف متأملا لهذه القصيدة التي تتجاوز الثلاثة وستين بيتا , بل يستوقفك كل بيت على حده .

وإذا كان الـ شاعر قد بدأ بالحديث عن الجـ سم , فهو يرد ذلك إلى رغبة النفس , رغبتها في الحزن التي تسـيء اسـتعمال الجسـد , ولذا فقد حاول الشـاعر مواجهة رغبات النفس , واختزال الحكمة في لفظ (قليل) و " هو لفظ يجمع في طياته الكثير الذي لا نقوى عليه " [47] .

[4] شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر , م : 1 ، ص : 11 ، عيون الأخبار، ابن قتيبة ، ج 2 ، ص : 158.
[1] صوت الشاعر القديم , د . مصطفى ناصف , ص : 131 .

وإذا لم يستوقفنا شحوب الجسم , وقضاض المضجع , ووراثة الحسرة , واستقرار العبرة حتى يصدمنا رأيه في البكاء وتغيره بالولوع به .

وينقل صـــورة غاية في الروعة حين يصـــور هواه بأن يموت قبل أولاده , وكيف يكون هواهم في الموت , فأخذتهم المنية , ولا تملك إلا أن تقف عند البيت ذاته الذي حول التأســـي فيه, فيشد السلوى من خلال (ولكل جنب مصرع) وقد استخدم " التكرار أسلوبا جهوريا يصلح أن يجاري الحياة ... ويقرع الأسماع بالكلمات المثيرة " [48]

وحين يحيا الإنسان عيشة مليئة بالتعب والنصب , فلا بد أنه بينه وبين نفسه ينشد الراحة والسرور , وهو ما عبر عنه الشاعر حين أيقن (إخال) إنه (لاحق مستتبع) .

ولا تخفى عليك دلالة اسم الفاعل من إرادة الموت , والسعي إلى المصير مريداً غير جزوع.

ومع ريب المنون وعتب الدهر وشحوب الجسم وقضاض المفجع ووراثة الحسرة وإقامة العبرة والولوع بالبكاء ومخالفة الهوى ونصب العيش وفشل الدفاع أمام المنية ! يتجلد الشاعر أمام الشامتين ولا يتضعضع لريب الدهر .

رثاء الأخ

نشأ عديد الأبناء مع بعضهم بعضا , وعاشوا صعاب الحياة ، وخاضوا غمرات الحروب ، ومارسوا البداوة , فجمعت بينهم الأخوة في الدم , والرفقة في المعيشة والمهنة فصاروا أقرب

[2] شعر الرثاء في العصر الجاهلي , د . مصطفى الشوري , ص : 154 .

في الوشيجة بكثرة الأوقات التي يقضونها مجتمعين إلى أن يفرق بينهم الموت , فيتحسر الشاعر على أخيه , وعلى رفقته , يقول صخر الغي من الطويل : [49]

أَخِي لَا أَخَا لِي بَعدَهُ سَبَقَتْ بِهِ مَنِيَّتُه جمعَ الرُّقَى وَالطَّبَائِبِ

فَذَلِكَ مِمَّا أَحدَثَ الدَّهـــــــــرُ أَنَّهُ لَهُ كُلُّ مَطلُوبٍ حَثِيثٍ وَطَالِبِ

ولأن المجتمع الجاهلي مجتمع قبلي يعج بالقتل , ويمجّد الأخذ بالثأر , فانعكس هذا العرف الاجتماعي على حياة الجاهليين الذين رفضوا قبول الصلح , وأخذ الدية , يقول أبو جندب من الطويل. [50]

فَمَن كَانَ يَرجُو الصُّلحَ فِيهِ فَإِنَّهُ كَأَحمَرِ عَادٍ أَو كُلَيبٍ لِوَائِـــــــــــــــلِ

أَتَيتَ بِمَا تُرجِي البَسُوسُ لِأَهلِهَا بِأَلفَي لِجَامٍ قَبلَ أَلفَي مُقَاتِـــــــــــــــلِ

فَلَهفَي عَلَى عَمرِو بنِ مُرَّةَ لَهفَةً وَلَهفَي عَلَى مَيتٍ بِقَوسَى المَعـــَاقِـــــــلِ

فَقَدتُ بَنِي لُبنَى فَلَمَّا فَقَدتُهُـــــم صَبَرتُ فَلَم أَقطَع عَلَيهِم أَبَاجِلِـــــــــــي

حِسَانُ الوُجُوهِ طَيِّبٌ حُجزَاتُهـَا كَرِيمٌ نَثَاهُم غَيرُ لُفٍّ مَعَـــــــــــــــازِلِ

وَقَد أَمِنُونِي وَاطمَأَنَّتْ نُفُوسُهُـــم وَلَم يَعلَمُوا كُلَّ الَّذِي هُوَ دَاخِلِـــــــــــي

اجتمعت اللهفة مع الصبر عند الشاعر , وهما مارآه الناس فيه , ولكنهم لم يروا ما بداخله من الوجد والغضب على قتل أخيه .

---

[3] شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر , م : 1 ، ص : 246 - 253 ، الرقى : لم تغن عنه الرقية ، الطبائب : جمع طبيب .

[1] شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر ، م : 1 ، ص : 346 - 347 ، أحمر عاد : الذي عقر الناقة ،كليب لوائل : يجلب عليكم ما جلب كليب على قومه ، البسوس : امرأة من تميم ، عمرو : اسم أخيه ، الأباجل : الأبجل عرق في اليد ، طيب الحجزة : أي هو عفيف ، غير لف : غير ضعيف الرأي ، معازل : الذين لا أسلحة معهم ، قوسي المعاقل : موضع من بلاد هذيل .

وكثيراً ما يقرن الـ شعراء بين ذكر الفاجعة على الفقيد , مع ذكر صفاته وطبائعه , وهي صفات تكاد تكون واحدة , ولا تختلف عن الفـ ضائل التي يقرها المجتمع الجاهلي عامة , يقول معقل بن خويلد في رثاء أخيه من الطويل : [51]

لَعَمـــــرِي لَقَد نَادَى المُنَادِي فَرَاعَنِـــي غَدَاةَ البُوَينِ مِن قَرِيبٍ فَأَسمَعَـــــــــا
لَعَمرِي لَقَد أَعلَنتَ خِرقًا مُبَـــــــــرَّأً مِنَ التَّغبِ جَوَّابِ المَهَالِكِ أَروَعَـــــا
جَـــوَداً إِذَا مَا النَّاسُ قَلَّ جَوَادُهُـــــــم وَسِفّاً إِذَا مَا صَارِخُ القَومِ أَفزَعَـــــــا
فَـــأَظلَمَ يَومِي بَعدَ مَا كَانَ مُبصِـــــراً وَفَاضَتْ دُمُوعِي مَا وَنَين بِأَضرَعَـــا
فَقُلتُ لِهَذَا الدَّهرِ إِن كُنتَ تَارِكِـــــــــي لِخَيرٍ فَدَع عَمراً وَإِخوَتَهَ مَعَـــــــا
فَيَا لَهفَ نَفسِي فِي عِيَادِ خُوَيلِـــــــــدٍ وَلَكِن أَخُو العَلَدَاةِ ضَاعَ وَضَيَّعَـــــا

وهي الصورة نفسها التي رثا بها قيس بن عيزارة أخاه الحارث [52] , فذكر اللهفة على أخيه وكمده عليه , كما عدد صفاته ومناقبه .

ومثله فعل البريق الخناعي حين رثا إخوته , فبكى وأبكى , ووصف إخوته بما هم أهل له [53].

ويتكرر الأرق مع أبي خراش الذي لم ينســـه طول الزمن فراق أخيه , ويتذكر الأماكن التي ارتاداها معاً , غير أنه يصبر صبراً جميلا , يقول أبو خراش من الطويل : [54]

---

(2) المصدر نفسه , م : 1 ، ص : 401 - 403 ، أعلنت : أظهرت موته ، الخرق : السخي الكريم ، التغب : القبيح ، أروع : شهم القلب، السف : الحيَّةُ الذكر ، عياد خويلد : أي في علاجه، العلداة : جبل مات به أي نهيته فلم يقبل مني .
(3) المصدر نفسه ، م : 2 ، ص : 597 - 600 ، وكذلك ص : 601 – 602 .
(1) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر ، م : 2 ، ص : 741 - 745 ، وكذلك ص : 746 – 747 .
(2) المصدر نفسه ، م : 3 ، ص : 1189 - 1190 ، ثوائي : مكثي ، جليل : عظيم ،أنست ضوءه : يقول : كأن قد قرب الصبح مني في ظني ، قطع : أي بقية من الليل .

لَعَمرِي لَقَد رَاعَت أُمَيمَةَ طَلعَتِي وَإِنَّ ثَوَائِي عِندَهَا لَقَلِيـــــــــلُ

تَقُولُ أَرَاهُ بَعدَ عُـــــــــــروَةَ لَاهِيًا وَذَلِكَ رُزءٌ لَو عَلِمتِ جَلِيــلُ

وَلَا تَحسَبِي أَنِّي تَنَاسَيتُ عَهــــــدَهُ وَلَكِنَّ صَبرِي يَا أُمَيمَ جَمِيلُ

أَبَي الصَّبرَ أَنَّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِـــــي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا خَلَا وَمَقِيـــــــلُ

وَأَنِّي إِذَا مَا الصُّبحُ آنَستُ ضَوءَهُ يُعَاوِدُنِي قِطعٌ عَلَيَّ ثَقِيـــــــــلُ

ويبدو أن الرابطة بين الإخوة قوية بحيث يصبح الحزن عليه شديداً لدرجة تجعل الشاعر لا يأنس لحديث , ولا ينام الليل , وحين يصبح يصاب بالذهول بين الناس , فلا يميز شيئا , ولا يتعرف على وجه أحد , يقول مالك بن حريم من المنسرح : [55]

لَا أَسمَعُ اللَّهوَ فِي الحَدِيثِ وَلَا يَنفَعُنِي فِي الفِرَاشِ مُضطَجَعُ

يَنظُرُ فِي وَجهِ الرِّجَـــــالِ فَلَا يَعرِفُ شَيئًا فَالوَجهُ مُلتَمِــعُ

وحين نذكر قوة رابطة الأخوة يتبادر إلى الذهن صدمة المهلهل بموت أخيه كليب ، تلك الفاجعة التي استغرقت ديوان شعره ، وقد تنوعت مرثياته ما بين تصوير هول المصيبة والبكاء والنواح على أخيه بألفاظ حزينة ، إلى التأبين وتعداد المحامد ، والتهديد والوعيد بأخذ الثأر وهجر ما حوت الديار إلا أننا نجد الغناء بالبطولة متناثرا في ديوانه ، يقول المهلهل من البسيط : [56]

نَعى النُعاةُ كُلَيباً لي فَقُلتُ لَهُم مادَت بِنا الأَرضُ أَم مادَت رَواسيها

الحَزمُ وَالعَزمُ كانا مِن صَنيعَتِهِ ما كُلَّ آلائِهِ يا قَومُ أُحصيها

---

[3] الأمالي ، أبي علي إسماعيل القالي ، تحقيق : الشيخ صلاح هلل ، ج : 2 ، ص : 96 .
[56] ديوان مهلهل بن ربيعة ، طلال حرب ، ص : 212 .

القائدُ الخَيلَ تَردي في أَعِنَّتِها زَهواً إِذا الخَيلُ بُحَّت في تَعاديها

الناحِرُ الكومَ ما يَنفَكُّ يُطعِمُها وَالواهِبُ المِئَةَ الحَمرا بِراعيها

وإن كان المهلهل رثى أخاه طيلة حياته فإننا لا نغفل رثاء الخنساء لأخيها صخر، تلك الفاجعة التي أفقدتها اتزانها ، فرغم فقدها لأخيها معاوية قبله ، وكذلك فقدها لزوجها ، إلا أن مصيبتها بصخر لا تعدلها مصيبة ، تقول الخنساء من البسيط : (2)

قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّارُ أَم ذَرَفَت إِذ خَلَت مِن أَهلِها الدارُ

كَأَنَّ عَيني لِذِكراهُ إِذا خَطَرَت فَيضٌ يَسيلُ عَلى الخَدَّينِ مِدرارُ

تَبكي لِصَخرٍ هِيَ العَبرى وَقَد وَلَهَت وَدونَهُ مِن جَديدِ التُربِ أَستارُ

تَبكي خُناسٌ فَما تَنفَكُّ ما عَمَرَت لَها عَلَيهِ رَنينٌ وَهِيَ مِفتارُ

تَبكي خُناسٌ عَلى صَخرٍ وَحُقَّ لَها إِذ رابَها الدَهرُ إِنَّ الدَهرَ ضَرّارُ

رثاء الأقارب

رغم الحياة القا سية , والمعاناة الـ شديدة , والحروب الكثيرة , احتفظ الـ شعراء بـ صورة مـ شرفة لبعض أهلهم وأقاربهم لأنهم الـ سند الوحيد والملجأ الأخير , ولذا فإن مرارة فقدهم تكون عظيمة و " موتهم خ سارة فادحة , فهم حماة الحياة سواء بما يجودون به من فيوض , أو بما يمنعونها من العوادي " [57].

(4) الحياة والموت في الشعر الأموي ، د . محمد الزير ، ص : 295 .

وهم بذلك يبكون فيهم صـــــلة الرحم التي انقطعت ، والتي كانت تربطهم بهم , فيبدو أن تمسكهم بهم هو تمسك بالشعرة الأخيرة التي كانوا يأملون فيها توا صلا , يقول عبد مناف بن ربع من الطويل : (58)

فَعَينِي أَلَا فَابكِي دُبَيَّةَ إِنَّهُ وَصُولٌ لِأَرحَامٍ وَمِعطَاءُ سَائِلِ

فَوَ اللهِ لَو أَدرَكتُهُ لَمَنَعتُهُ وَإِن كَانَ لَم يَترُك مَقَالاً لِقَائِلِ

وتتكرر صورة الشجاعة منقطعة النظير , والكرم إلى أبعد الحدود حتى ليغدو عطاء غير مجذوذ , يقول أبو خراش في رثاء قريبه من الطويل : (59)

تَكَادُ يَدَاهُ تُسلِمَانِ رِدَاءَهُ مِنَ الجُودِ لَمَّا استَقبَلَتهُ الشَّمَائِلُ

وَإِنَّكَ لَو وَاجَهتَهُ إِذ لَقِيتَهُ فَنَازَلتَهُ أَو كُنتَ مِمَّن يُنَـــــــــازِلُ

وَلَم أَنسَ أَيَّامًا لَنَا وَلَيَالِياً بِحَلَيَةَ إِذ نَلقَى بِهَا مَن نُحَـــــاوِلُ

ويبدو أن موت القريب " يولد في النفس إحساسا عميقا بالألم والمرارة بسبب الفقد , وهو إحساس تنشأ في ظله فكرة مأساوية أخرى عن الحياة تتعمق وجدان الشاعر , وهي الشعور بأن الحياة في حقيقتها ظل زائل وخيال سريع التلاشي " (60).

وكما أقض الأرق مضجع الشعراء في وفاة أبنائهم وإخوتهم , كذلك كان رفيقهم في موت أقاربهم , يقول عبد الله بن أبي ثعلب من المتقارب : (61)

(5) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر ، م : 2 ، ص : 686 ، دبية : اسم قريبه.
(1) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر ، م : 3 ، ص : 1222 .
(2) الحياة والموت في الشعر الأموي ، د . محمد الزير ، ص : 293 .
(3) شرح أشعار الهذليين , عبد الستار فراج , محمود شاكر ، م : 2 ، ص : 885 .

أَرِقتَ وَمَالَكَ أَلَّا تَنَامَـــــا وَبِتَّ تُكَابِدُ لِيلاً تِمَامـــَا

تُكَابِدُ لِيلاً بَعِيدَ الصَّبَـــــا حِ حَتَّى تَرَى الفَجرَ يَجلُو الظَّلَامَا

لِفَقدِ عَشِيرَتِكَ الذَّاهِبِـــي نَ تُذرِي شُؤُونُكَ دَمعًا سِجَامَـــــا

يُنَازِعُكَ المَوتُ سَادَاتِهِم وَفِتيَانَهُم والسَّرَاةَ الكِـــــــرَاما

إنه الموت الذي يهلك الناس , فلا يكاد يفرغ من إهلاك قوم حتى يـ شرع في إهلاك آخرين, فلا يبقى له إلا الفجيعة والحسرة , يقول عبد الله بن أبي ثعلب من المتقارب : (62)

إِذَا المَوتُ أَنفَدَ مِن مَعشَـــــرٍ فِئَامًا يَعُودُ فَيُضنِي فِئَامـــــــَا

أَعَينَيَّ جُودَا عَلَى فِتيَـــــــةٍ فُجِعنَا بِهِم لَم يَكُونُوا لِئَامَـــــا

جَمَاجِمُ كَانُوا مِنَ أَهلِ الحَمِيـــــمِ وَفِي النَّاسِ كَانُوا أُسُودًا حِمَامَـــــا

وَلَو رُزِئَتهُم رَوَاسِي الجِبـــــَالِ لَمَالَتْ رُؤُوسُ الجِبَالِ انهِدَامـــــَا

فَلَاقَيتُ بَعدَهُمُ غَشيَـــــــةً وَصَرفَ أُمُورٍ تُشِيبُ الغُلَامَـــــا

بُنَيَّاتُهُم وَأُخَيَّاتُهُـــــــم وَأَزوَاجُهُم لَا يُسِغنَ الطَّعَامَـــــا

ويـ صور حزنهم عليهم , ومرارة فقدهم , ويتأ سى بذكر صفاتهم وحـ سن أخلاقهم في مرثية تفوق الـ ستين بيتاً , ويحاول التـ صبر بما تركوه فيهم من دماثة خلق وكرم وحـ سن جوار حتى يبدو أنه يصور هؤلاء الموتى متمثلين في أبنائهم وأحفادهم , يقول من المتقارب :

رُزِئنَا فَلَم تَغشَنَا كَبـــــــوَةٌ وَكُنَّا كِرَامًا رُزِئنَا كِرَامـــــــَا

(4) المصدر نفسه ، م : 2 ، ص : 885 – 888 .

وَكُنَّا عَلَى حَـــــــــــــدَثِ الحَادِثَاتِ نَحتَمِلُ المُضْلِعَاتِ العِظَامَـــــــــــا

وَنَبذُلُ آمِـــــــــنَ أَموَالِنـــــــــــــَا وَنَقضِي عَنِ الغَارِمِينَ الغَرَامـــــــــَا

وَنُوفِي الجِـــوَارَ إِذَا مَا نُجِيـــــــــــرُ حَتَّى نُؤَدِّيَ عَنَّا الذِّمَامـــــــــــــــَا

وَنَدفَعُ عَن جُلِّ أَحسَابِنَـــــــــــــــــا بِصِدقٍ إِذَا مَا زَعَمنَا الزِّعَامَـــــــــــا

وَلَن يَعدَمَ الدَّهـــــــــــــــــرُ مِنَّا فَتىً كَرِيماً إِذَا مَا نَسَبتَ الكِرَامَـــــــــــــا

ويبدو أن الفجوة التي تعقب موت القريب تترك فراغاً لا يسـده أحد بعده ، فلا يقتصـر الأمر على موته ، ولكنه يصدّع بناء قبيلة كاملة يقول عبدة بن الطبيب من الطويل : [63]

وَمَا كَانَ قَيسٌ هَلَكهُ هلكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنيَانُ قَومٍ تَهَدَّمَا

وقد أجمع عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي على أنه أرثى بيت قالته العرب (2)

رثاء الرفيق

حينما كانت تقوم الحروب بين القبائل ، وتدور رحاها فتطحن من رؤوس القوم من تطحن , شعر الجاهلي بمرارة الفقد لرفيقه في الحمى والديار ، ولذا كان حين يـ سقط أحدهم صريعا تعظم عندهم هول المصيبة , ويتجرعون مرارة الفقد , ولكن الظاهرة الأبرز هي أنهم لا يجدون في موت زميل لهم " حادثا مفجعا يدعو لليأس والتباكي , ذلك لأن الموت زميل لهم ... وتقويم أساسي في سلوكية الحياة الجاهلية وأخلاقيتها " [64].

(63) الأمالي ، أبي علي إسماعيل القالي ، تحقيق : الشيخ صلاح هلل ، ج : 2 ، ص : 118 .
(4) الأدب الجاهلي ، د . خليل أبو دياب ، ص : 325 .

ومن هنا كثر رثاء الـ شعراء لأ صحابهم , وكانوا أوفياء لهم , ولذكراهم , يقول تأبط شرا من الطويل : (65)

أَبَعدَ قَتِيلِ العَوصِ آسَى عَلَى فَتىً وَصَاحِبِهِ أَو يَأمُلُ الزَّادَ طَارِقُ

" فالاستفهام يتضمن استبعادا لأن يكون هناك من يرجو لذة العيش ... ويقترن بحقيقة أن مصير من يبقى هو نفس مصير من مضى , فالكل إلى ذهاب " (66).

ولارتباط هذا الـ شاعر بقبيلته كان " يرى أن فقد أحدهم خ سارة لا تعوض , وإ ضعاف للجماعة التي تشق طريقها في الحياة بقوة أبنائها , وكسر لسلاح من أسلحتها " (67).

وقد رثى رفيقه وصـــديقه الحميم الشـــنفرى بأبيات تفيض بروح التقدير والوفاء , متحدثاً عن شجاعته و شدة بأسه و صبره وكرمه , ويتأسى بأن الموت مصير كل حر كريم مصابر , فيقول في بعض من قصيدته من الطويل : (68)

عَلَى الشَنفَرى سَارِي الغَمَامِ فَرَائِحٌ غَزِيرُ الكُلَى وَصَيِّبُ المَاءِ بَاكِـــــرُ

فَإِن تَكُ نَفسُ الشَّنفَرَى حُمَّ يَومُهَـــا وَرَاحَ لَهُ مَا كَانَ مِنهُ يُحَـــــــــــاذرُ

فَمَا كَانَ بِدعاً أَن يُصَـــابَ فَمِثلُـــــــــهُ أُصِيبَ وَحُمَّ المُلَتَجُون الفَـــــــوَادرُ

قَضَى نَحبَهُ مُستَكثِراً مِن جَمِيلِـــــــهِ مُقِلاً مِنَ الفَحشَاءِ وَالعِرضُ وَافِـــــــــرُ

فَيَكفِي الَّذِي يَكفِي الكَرِيمُ بِحَزمِـــــــهِ وَيَصبِرُ إِنَّ الحُرَّ مِثلُكَ صَابِـــــــــــــرُ

(5) ديوان تأبط شرا ، طلال حرب ، ص : 43 . العوص : بطن من قبيلة بجيلة ، آسى : أحزن ،الطارق : الآتي ليلا .
(1) أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، د . حسني يوسف ، ص : 74 .
(2) شعرنا القديم والنقد الجديد ، وهب أحمد رومية ، ص : 207 .
(3) عيون الأخبار ، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ص : 37 - 38 ، غزير الكلى : كثير الماء ، الصيب : السحاب ذو المطر، الملتجون : المخصبون ، الفوادر : الحمقى ، سوام الموت : شبهها بالإبل السائمة في المرعى ، فلا يبعدن : دعاء جاهلي كي لا ينسوه ، متواتر : متتابع .

فَلَو نَبَّأَتني الطَّيرُ أَو كَنـــتُ شَاهِـــــدًا لآسَاكَ فِي البَلوَى أَخٌ لَكَ نَاصِـــــــرُ

وَخَفَّضَ جَأشِي أَن كُلَّ ابنِ حُـــــرَّةٍ إِلى حَيثُ صِرتَ لَا مَحَالَـــــــةَ صَائِرُ

وَإِنَّ سَوَامَ المَوتِ تَجرِي خِلَالَنـــــــا رَوَائِحُ مِن أَحدَاثِهِ وَبَوَاكِـــــــــــــرُ

فَلَا يَبعَدَنَّ الشَّنَفَرَى وَسِلَاحُـــــهُ الـــــ حَدِيدٌ وَشَدٌّ خَطوُهُ مُتَوَاتِـــــــــــــرُ

وَأَجمَلُ مَوتِ المَرءِ إِذ كَانَ مَيِّتـــــــاً وَلَابُدَّ يَوماً مَوتُهُ وَهوَ صَابِـــــــــــرُ

رثاء النفس

شاع في الشعر الجاهلي أن يرثي الشعراء أنفسهم , فيذكرون حياتهم , وما مضى منها , وكذلك نجد اتجاه آخر سلكه بعض الـ شعراء الذين كانوا حين يدرك أحدهم أنه مقتول , " فبدلا من رثاء نفـ سه , فإنه يمعن بالـ شماتة من الأعداء , فيعيرهم بفتكه بهم فقد سلب الإبل , وأيّم النساء , وفك العاني , وغزا القوم في عقر دارهم " (69) .

يقول السُّليك من الرجز : (70)

مَن مُبلِغٌ جِذمِي بِأَنِّي مَقتُول يَارُبَّ نَهبٍ قَد حَوِيتُ عُثكُول

وَرُبَّ قِرنٍ قَد تَرَكتُ مَجدُول وَرُبَّ زَوجٍ قَد نَكحتُ عُطبُول

وَرُبَّ عَانٍ قَد فَكَكتُ مَكبُول وَرُبَّ وَادٍ قَد قَطَعتُ مَسبُول

(4) شعرنا القديم والنقد الجديد ، وهب أحمد رومية , ص : 78 .
(1) ديوان الشنفرى ، طلال حرب ، ص : 96 ، الجذم : يقصد أهله وعشيرته , العثكول : يقصد نهبا متنوعا , القرن : البطل ، مجـدول : مصروع ، عطبول : المرأة الفتية ،العاني : الأسير ، مسبول : مسلوك أي جرئ لا يخشى الرصد .

ولأن الجاهليين يرفضون الأسر , ويفضلون الموت على الهوان , فقد تكررت مشاهد مصارعهم , وتكررت أبيات رثائهم لأنفسهم حين اختاروا الموت , فنجد أبيات الشنفرى تشبه أبيات السليك [71] ومثله فعل قيس بن الحدادية حين رفض الأسر وارتجز أبياتا يرثي بها نفسه حتى قتل (4).

وممن رثا نفسه أيضا عبد يغوث الحارثي حين أسره أعداؤه , فطلب منهم أن يقتلوه ميتة كريمة , فقطعوا عرقه الأكحل , وتركوه ينزف حتى مات بحضور ابنين له , فقال هذه القصيدة طالباً من ولديه عدم لومه , وراثياً نفسه , وذامّاً قومه الذين أسلموه , وهو يدافع عنهم ويحميهم, ولو شاء النجاة بنفسه لأمكنه ذلك [72] ,ويتأسى بشيء من فضائله وخلاله , وهو يجود بنفسه , يقول من الطويل : [73]

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللَّومَ مَابِيَـــــــــــــا وَمَا لَكُمَا فِي اللَّومِ خَيرٌ وَلَا لِيَـــــا

أَلَم تَعلَمَا أَنَّ المَلَامَةَ نَفعُهَـــــــــــــا قَلِيلٌ وَمَا لَومِي أَخِي مِن شِمَالِيـــاَ

فَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضتَ فَبَلِّغَـــــــــــن نَدَامَايَ مِن نَجرانَ أَن لَا تَلَاقِيَـــــا

وَلَو شِئتُ نَجَّتنِي مِنَ الخَيـــلِ نَهـــــدَةٌ تَرَى خَلفَهَا الحُوَّ الجِيَادَ تَوَالِيـــــاَ

وَلَكِنَّنِي أَحمِي ذِمَارَ أَبِيكُـــــــــــــمُ وَكَانَ الرِّمَاحُ يَختطِفنَ المُحَامِيـــــاَ

أَقُولُ وَقَد شَدُّوا لِسَانِي بِنِسعَـــــــــــةٍ أَمَعشَرَ تَيمٍ أَطلِقُوا عَن لِسَانِيـــــاَ

(2) عيون الأخبار ، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ص : 31 ، والأبيات ناقصة في الديوان .
(4) ينظرالأدب الجاهلي , د. خليل أبو دياب , ص : 342 – 345 .
(5) الأغاني للأصفهاني ، م : 16 ، ص : 333 - 335 ، شماليا : يريد شمائلي، النهدة : المرتفعة الخلق ،الحو : من الخيل التي تضرب إلى الخضرة وخص الحو لأنها أصبر الخيل وأخفها عظاما ، تواليا : تتلوها أي تتبعها ، الذمار : ما يجب على الرجل حفظه ، النسعة : القطعة من سير يظفر من جلد ، المعزب : المتنحي بإبله ، المتالي : الإبل التي نتج بعضها وبقى بعض ، الشرب : جمع شارب ، أصدع : أشق ،السبأ : اشتراء الخمر ، الروي : الممتلئ ،الأيسار : الذين يضربون القداح .

أَحَقًا عِبَادَ اللَّهِ أَن لَستُ سَامِعـــــــــــــاً نَشِيدَ الرِّعَاءِ المُعزِبِينَ المَتَالِيـــــــــا

وَقَد كُنتُ نَحَّـــــــارَ الجَزُورِ ومُعمِلَ المَـــ طِيِّ وَأَمضِي حَيثُ لَا حَيَّ مَاضِيَـــــــا

وَأَنحَرُ لِلشَّربِ الكِرَامِ مَطِيَّتِـــــــي وَأَصدَعُ بَينَ القَينَتَينِ رِدَائِيَـــــــــــــــا

كَأَنِّي لَم أَركَب جَوَاداً وَلَم أَقُـــل لِخَيلِي كُرِّي نَفِّسِي عَن رِجَالِيَـــــــــــــا

وَلَم أَسبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَم أَقُـــل لِأَيسَارِ صِدقٍ أَعظِمُوا ضَوءَ نَارِيـــــــــــا

فال شاعر هنا لا يأ سى على نف سه وغربته , وإنما يفخر بكرمه و شجاعته , و " لا يكاد ي شير إلى الموت في أبياته , ولا ي صرح بذكره , فهو لا يحس اللوعة ال صادرة عن ال شعور بالحنين إلى أهله ووطنه إلا في بيت واحد يجيء في إطار عام من إحســـاس الفارس بذاته وإدلاله بفروسيته وسيادته " (1) .

وكما كثر الموت فيهم , كثرت مراثيهم لإخوانهم وأقاربهم ورفاقهم , وكذلك رثاؤهم أهلهم بأبيات تفيض صدقاً وعاطفة , وتحمل لوعةً وأ سى على فتيان ق ضوا في ريعان شبابهم , ولم ينالوا من الحياة عيشـــاً هانئاً , أو عمراً مديداً , إلا أنهم كانوا – كما قيل فيهم – شـــجعان في حياتهم , شجعان في مماتهم .

تَمشِي النُّسُور إِليهِ وَهيَ لَاهِيَةٌ مَشيَ العَذَارَى عَلَيهِنَّ الجَلَابِيب (1)

النتائج والتوصيات

وهكذا تنتهي هذه الدراسة عن شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، حيث اتخذ الشعراء الموت حافزاً إلى التعبير عن عواطفهم ، واستطاعوا أن يصوروا أحزانهم فيه ، فتعددت صور الرثاء من تفجّع على الميت ، وإبداء الحزن على فراقه ، وتصوير الخسارة التي نجمت عن فقده ، إلى تعداد محاسن الميت وذكر مآثره ، تعقبها دعوة إلى التأمل في حقيقة الحياة وحتمية الموت ، وما كان رثاء النفس إلا جانباً من اهتمامهم بإظهار صفاتهم التي ستخلد ذكراهم ، لذا لم يهتموا بإظهار حزنهم وجزعهم على فراق الدنيا .

وقد كشفت الدراسة أن الجاهليين كانوا يؤمنون بحتمية الموت ، الأمر الذي أدى إلى شيوع الجبرية في نفوس الكثيرين ، وهو ما اقتصرت عليه هذه الدراسة الموجزة التي لم نتطرق فيها إلى ما يقابل هذه الجبرية وهو نوع من التهافت على لذات الحياة ومتعها .

الأمر الذي يدعو إلى عديد الدراسات التي تستنطق درره الكامنة ، وتكشف خبايا جوانب أخرى منها : الجانب الأسطوري والموروث الجاهلي ، وصور الحيوان مثالا للعجز عن إدراك الخلود في هذه الحياة ، كذلك بروز الخمر كرد فعل مباشر للموت والفناء تحتاج إلى دراسة مستفيضة ، وأيضًا الجانب الفني لقصيدة الرثاء يتطلب دراسة مستقلة ، ابتداء من الوحدة في المرثية ، مرورا بالأسلوب والإيقاع والصورة والوصف وكثرة التشبيهات .

قائمة المصادر والمراجـــــع

أولاً : المصادر

القرآن الكريم .

– الأغاني لأبي الفرج الأ صفهاني ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة م صر ، م صور عن طبعة دار الكتب المصرية ، 1963 .

– الأمالي ، أبي علي إ سماعيل القالي ، تحقيق : ال شيخ صلاح هلل ، ال شيخ سيد الجليمي ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، 2010 .

– خزانة الأدب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشـــرح : عبد الســـلام هارون ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة مصر ، 1968 .

– دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، القدس للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر، الطبعة الثالثة 1992 .

– ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، تحقيق وشرح : د. انطونيوس بطرس ، دار صادر، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 2003 .

– ديوانا عروة والسموأل ، كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت لبنان ، 1964.

– ديوان تأبط شـــراً ، تقديم : طلال حرب ، دار صـــادر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1996.

– ديوان حاتم الطائي ، كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية 1982 .

– ديوان الخنساء ، شرحه حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .

– ديوان الشنفرى ويليه ديونا السليك بن السلكة وعمرو بن براق ، طلال حرب ، دار صادر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1996 .

– ديوان مهلهل بن ربيعة ، شرح وتقديم طلال حرب ، الدار العالمية ، بيروت لبنان .

– شرح أشعار الهذليين ، أبي سعيد السكري ، تحقيق : عبد الستار فراج ، مراجعة : محمود شاكر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة مصر .

– عيون الأخبار ، أبي محمد عبد الله بن م سلم بن قتيبة ، ضبط و شرح : الداني بن منير آل زهوي ، المكتبة العصرية ، بيروت لبنان ، 2011 .

ثانياً : المراجع

– الأدب الجاهلي دراســـة وتحليل ، د . خليل أبو دياب ، دار عمار للنشـــر والتوزيع ، عمان الأردن .

– أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي ، د . حسني عبد الجليل يوسف ، دار المعالم الثقافية ، الأحساء السعودية ، الطبعة الأولى 2001 .

– الانتماء في الشـــعر الجاهلي ، د . فاروق أحمد ســـليم ، منشـــورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سوريا ، 1998.

– الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د . أحمد محمد الحوفي ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة مصر ، 1949 .

– الحياة والموت في الشعر الأموي ، د . محمد بن حسن الزير ، دار أمية للنشر والتوزيع ، الرياض السعودية ، الطبعة الأولى 1989.

– الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي و شعره ، د . صلاح عبد الحافظ ، دار المعارف ، الإسكندرية مصر ، 1982.

– الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، د . يحى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة 1983.

– شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، د . مصطفى الشوري ، الشركة المصرية للنشر ، القاهرة مصر ، الطبعة الأولى 1995 .

– شعرنا القديم رؤية عصرية ، أحمد سويلم ، دار العالم العربي ، القاهرة مصر ، الطبعة الأولى 2012 .

– شعرنا القديم والنقد الجديد ، وهب أحمد رومية ، عالم المعرفة الكويت ، 1996 .

– الصراع بين الإنسان والطبيعة في العصر الجاهلي ، د . محمد محمد الكومي ، رسالة دكتوراه منشورة ، جامعة الإسكندرية مصر ، 1989 .

– صوت الشاعر القديم ، د . مصطفى ناصف ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة مصر ، 1992 .

– فصول في الشعر ونقده ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1971 .

– قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت لبنان .

– قراءة متعاطفة مع الشعر الجاهلي ، د . سعد دعبيس ، الصدر للطباعة ، القاهرة مصر ، الطبعة الأولى 1989.

ثالثاً : الرسائل العلمية

– سيمائية الخرافة في المثل الجاهلي ، رسالة ماجستير مرقونة ، أماني صالح العقيلي ، جامعة بنغازي ، ليبيا ، 2010 ، 2011 .

– صورة الحياة والموت عند شعراء ربيعة في العصر الجاهلي ، رسالة ماجستير مرقونة ، مفيدة عبد الحميد الهرامة ، الأكاديمية الليبية ، طرابلس ليبيا ، 2018 .

.